«مدونات هابيل بن هابيل» لسامي مهدي:

تأمّل الموّت، وامتداح الكبرياء!

رشاد أبوشاور

■ سامي مهدي أحد أبرز شعراء العراق المعاصرين، في زمن الاحتلال، والموت اليومي المجّاني، يكتب شعراً يتأمل فيه الموت، لا كحدث عادي يدهم الانسان، ولكن بما هو انتقال من حال الى حال، يتأمله فلسفياً، بعمق، ورقّة، وود، بعيداً عن التفجيرات، والقصف، والاقتتال الحيواني الغريزي الطائفي...

هو في عراق توارث الناس فيه قتل قابيل لهابيل، لا مرّةً واحدة، ولكن مرّات لا تنتهي، وكأنما الغدر، والأنانيّة، والغرائزيّة، لا تتوقّف عن ممارسة دناءتها ما دام الانسان على هذه الأرض، فلا أخوّة، ولا ايمان بربٍ عادل، ولا ادراك بأن كلّ شيء زائل وأن الانسان لا يأخذ معه شيئاً الى القبر.

يسأل هابيل أباه :

أبي هل أسفت عليّ؟
وهل قلت شيئاً لقابيل عنّي
وهل قال شيئاً يعبّر عن ندم
أو حنين الي؟
أبي أنا أعرف ما قيل عنه،
ولكنه لم يزل، مثلما كان،
يقتلني كلّ يوم ويسلبني ما لديّ!
أبي،
أفلا يعمر الكون الاّ بقتلي؟
أقتلي، اذن، هو قانونه الأزلي؟!
(ص72)

في قصيدته الطويلة (الرحيل الى هناك) يتأمّل سامي مهدي (الموت)، يحاوره بودّ، دون خوف، بكثير من الألفة، يؤنسنه، يذكّره بما مضى من لقاءات:

أنت تذكرني لحت لي من بعيد
وكم مرّةً جئتني وتوقفت عند الوصيد
ثمّ غادرتني، مثل ساعي البريد
حبن يخطئ مطلبه، ومضيت الى ما تريد
أوكان الفضول يقود خطاك ويربطها بخطاي؟
أم ترى كنت تبحث عن دائن، أو مدين، سواي؟

هكذا يرى سامي مهدي الموت : مجرّد رسول يحمل نبأً بالبريد، يؤدي وظيفته، ثمّ يمضي، وقد يخطئ العنوان، ولكنه يعود في زمن ما لينهي مهمّته، والعلاقة لا تنتهي، ففيها مداورة، وترقّب، شيء ما يشبه أن يكون لعباً لتزجية الوقت والتسلية:

ثمّ ها أنت تأتي، كما كنت بالأمس تأتي،
وبخطو مريب
فأحسّ بأنك ترقبني من مكان قريب
(ص57)

الموت مع الشاعر وراء الباب، في السرير، في حبل الوريد، في الهواء، في كلّ شيء، وهو غير خائف منه، فهو يتأمله، يراقب سلوكه، ومناوراته ومخاتلته...

يتساءل الشاعر:

أوحان قطافي اذن
مثل فاكهة نضجت في الأوان
وتدلّت ليقطفها عابر في المكان
ويقطع آخر خيط لها بالزمان؟

الشاعر غير خائف، فهو يعرف النهاية الحتميّة لكلّ انسان على هذه الأرض، وهو لا يرى في الموت وحشاً بأنياب رهيبة، بوجه قبيح مروّع:

لست غولاً كما قيل عنك
ولا أي شيء مخيف
وأنا لست في فزع منك
أو جزع من طيوف
تتراءى لعينيّ حين تطوف..

هذه القصيدة الطويلة، التأمليّة، تحاور (الموت)، وما بعد الموت، تتأمّل حياة الانسان، والزمان، الخلود والفناء :

كنت أسأل : ماذا هنالك؟ ماذا وراء السكون؟
والغموض المعبأ بالصمت والصامتين؟
عالم مثل عالمنا؟
عالم مثل ما يصفون؟
ثمّ ماذا سنفعل بعد الرحيل اليه
وماذا ستكون جرايتنا فيه،
ماذا نكون؟

هي الأسئلة التي شغلت عقول الفلاسفة لقرون ولم يهتدوا الى ايجابيات شافية حولها، وهي الأسئلة التي نشأت منها الأساطير الميثولوجية العراقيّة القديمة، هي أسئلة (قلقامش)، ولوعته، ورغبته بالخلود، وهي، حتّى، أسئلة الناس العاديين، اللهم الاّ اذا سلّموا بقدرهم، وما يعدهم به دينهم فعندئذ يقبلون ما تخبّئه لهم أقدارهم بتسليم ورضى.

لا يغرق الشاعر في الأسئلة المجردّة، فهو يعيش زمنه، قل زمن العراق وبغداد الراهن، ومن خلاله يرى أزمنة غبرت، أفلت بكل ما حملته:

لا جديد هنا كالذي يصفون
لا جديد سوى غزوة، صورة من تقاليد تاريخنا
ولوازم رحلته في العصور، وما نحن نشهده اليوم
كنّا شهدناه من قبل...
كم مرّة؟!
لست أذكرها كلّها...
... ...
لا جديد اذن، فالغزاة يجيئوننا حقبةً بعد أخرى،
وقد يحبسون الهواء، اذا قدروا، في قوارير،أو
يجرحون السماء بما ملكوا من صواريخ..لكنهم
يرحلون...

يرحل الغزاة ويبقى كما في نشيد الشاعر الذي لم تهتزّ ثقته بالحياة : النخيل، وانسان العراق، وأنهار خصب العراق، وحضارة وانتساب العراق...

دائماً يرحلون..ونحن هنا، نحن والنخل والنهر
والعشب والطين، نحن وآباؤنا، وقبور ذوينا، هنا
منذ بدء الخليقة، منذ انبثاق الحقيقة، نحن هنا،
نحن والله، نحن هنا راسخون...
(من قصيدة :عند باب بغداد، هناك، جلسنا
وضحكنا).

في قصيدة (كريولانيس)، نقرأ مونولوجاً للبطل التراجيدي الممتلئ بالكبرياء، والذي ليس هو بطل مسرحيّة شكسبير بتقلباته، ولكنه (بطل) الشاعر المضحّي، الكريم، الممتلئ كبرياء، المتسائل بحزن عن سر تقلبات (العامة):

تبدأ القصيدة المونولوج بصيحات العامة الهائجة :
كريولانيس
كريولانيس
فليمت كريولانيس
فليمت..فليمت
كريولانيس
هنا يبدأ المونولوج :
عجباً.. ما لهم ينفثون الضغينة حولي؟
ما لهم يهدرون دمي ويبيحون قتلي
أفلم يهتفوا أمس لي بالولاء
وبطول البقاء؟
.....
يا الهي..يريدون لي أن أبيع
يريدون لي أن أضيع
الذي لا يباع
وأشحذ من كف جلف وضيع
سلامة روحي

بطل قصيدة كريولانيس متّهم بالكبرياء، ولذا يصيح وهو يرى رقصة (الدهماء) وانقلابها عليه:

وماذا أكون أنا ويكونون من دونما كبرياء؟!
وهل كبريائي سوى كبرياء لهم ولروما؟!
أثمّة روما بلا كبرياء؟!
وانظروا الآن أي بلاء يحل لهم بعدما حطموا كبريائي!

سامي مهدي يبحث عن المعنى، عن الجوهر، ينأى بنفسه عن تفاصيل تافهة، عن صيحات الدهماء، فهو ليس شاعر ردود أفعال، أو انفعالات راهنة تمضي مع مسبباتها.

بقيت لي من العمر أسئلة
وقليل من المال
لا يشتري غير دمع قليل
نصفه للبكاء على كوكب ضاع منّي
ونصف أنا ضيّعته في اقتفاء الدليل
وستبقى مؤجلة كلّ أسئلتي تلك
تبقى معلقةً بمسامير في أفق المستحيل
(أسئلة معلقة 34)

(مدونات هابيل بن هابيل) شعر صاف، فيه خبرات شاعر نشر عمله الشعري الأول في العام 65، ومنذ ذلك الوقت وهو يغني حركة الشعر العراقي والعربي، شاعر كبير يأتينا صوته النبيل رغم سحب الدخان، والموت، والخراب..الذي يجتاح العراق.

ـ صدرت هابيل بن هابيل عن منشورات أزمنة في عمّان نهاية عام 2006.

«الصحو» رواية سياسية عاصفة لحامل «نوبل»

خوزيه ساراماغو: المدهش في عصر الديمقراطية ان هناك موضوعات لا نستطيع مناقشتها!

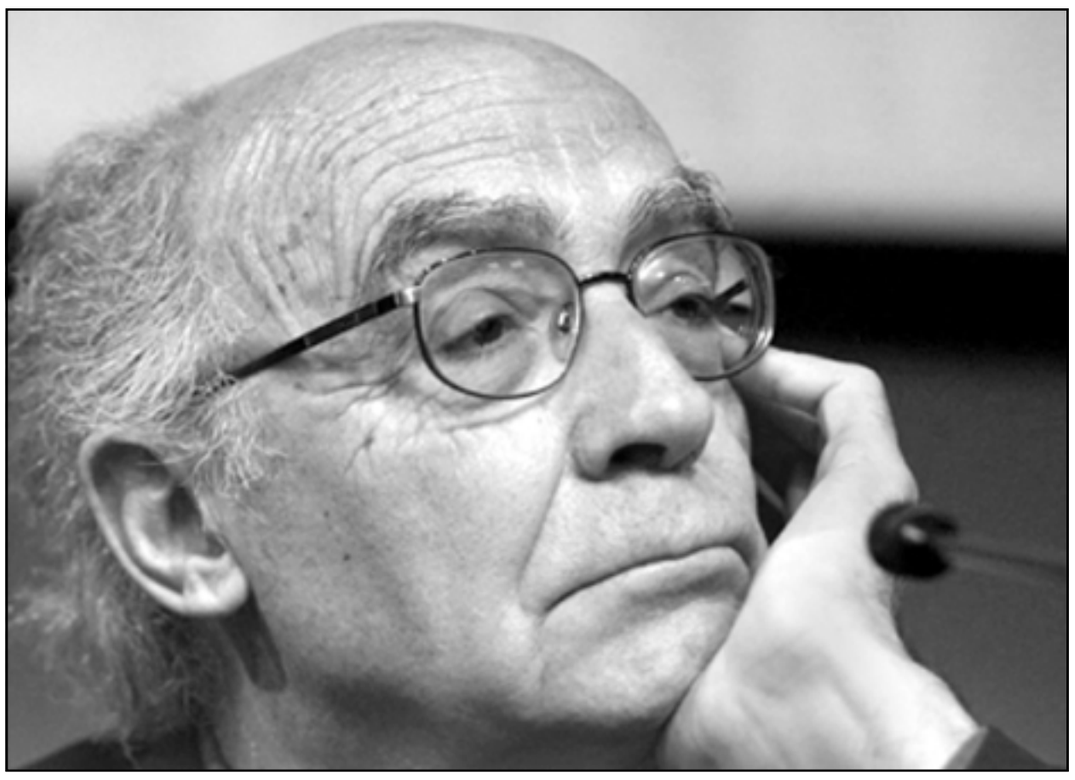

جوزيه ساراماغو

■ خوزيه ساراماغو، الحاصل على جائزة نوبل في الأدب، احتفل مؤخرا في عيد ميلاده الرابع والثمانين، بنشر رواية (الصَحْو) كتابه الأكثر سياسة و تدميرا.

* ثورة بيضاء

* رواية الصَحْو : في هذه المرحلة التي سيختار فيها خلال بضعة أشهر الفرنسيون رئيسا جديدا، تصدر رواية (الصَحْو) عن دار نشر سوي. انها رواية مثيرة للضحك، ساخرة، ولكنها أيضا معتمة، قليلة الضوء في حيثياتها. ان الرواية الجديدة لخوزيه ساراماغو، مستوحاة من خرافة عاطفية، ولكنها، في ذات الوقت، غاضبة، تشي وتشهر بنظام ديمقراطي فاسد.

في البداية، وفي عاصمة بلد متُخَيل، ومثلما في رواية (العمى) سكان هذه العاصمة المتَخيلة يقعون ضحية ظاهرة عمى مريع و لا يمكن شرحه أو تفسيره. ان هذا الوباء الجديد أصاب المدينة في ليلة الانتخابات البلدية: تكون نتيجة هذه الانتخابات سبعين بالمئة من بطاقات الاقتراع الفارغة البيضاء بحيث تجد الطبقة السياسية نفسها منقسمة ما بين الدهشة، الذهول وعدم الفهم. وعلى الفور، يبادر رئيس الوزراء أمرا ناهيا، في القيام بانتخابات جديدة. ولكن، وعلى الرغم من دعوة المواطنين الى الحكمة والتعقل بواسطة أجهزة الاعلام، يأتي يوم الأحد القادم، ويقع الامتناع عن التصويت بنسبة ثمانين بالمئة. أمام هذا (الضربة الوحشية الساحقة للديمقراطية)، الحكومة، تعقد اجتماعا عاجلا، لوضع حد للفوضى ولدراسة مسودة للعديد من الافتراضات (تهديد ارهابي، تآمر من قبل مجموعة تخريبية)، ولكي تفحص الطريقة التي يمكن فيها السيطرة على (الوباء الأبيض)، تصدر مرسوما بانشاء حكومة استثنائية.

مراقبة، تَسَلُّل، توقيف، استجواب، ولكن بلا جدوى. الحالة تتدهور من سيء الى أسوأ، لا سيما أن الشعب، على الرغم من كل ما يحدث من خراب واعتداء مجاني عليه، ظل، هادئ الأعصاب، ناضجا في صمته، يفكر بتأمل في حقوقه المدنية، وصار يحمل كل واحد منه، شارة حمراء وسوداء مكتوب عليها: (انتخبت البياض)، أي أعطيت بطاقة الاقتراع فارغة بيضاء. أمام هذا التحريض الجديد، الحكومة تغضب، تهيج، فتقرر هذه المرة اقامة حالة الحصار وأحكام عُرفيّة، هلع، رعب، حزم أمتعة ورحيل في ليل غريب وفريد.

لقاء مع خوزيه ساراماغو

■ بعد حصولك على جائزة نوبل عام 1998، وأنت تشعر بمسؤولية جديدة ؟

■ خوزيه ساراماغو: بالتأكيد، لأنني كنت أول مؤلف يكتب باللغة البرتغالية يحصل على هذه الجائزة. لهذا السبب، شعرت بواجب أن أضع نفسي بمستوى قرن من الأدب البرتغالي تقريبا، وهذا ما يجعلني جاهزا لكل شيء. لقد ذهبت الى كل مكان، الى حيث ما يدعوني، الى البرازيل، وموزمبيق، وبكل تأكيد الى البرتغال ـ حتى وان كان هذا متعبا، ولكن رؤية الفرح والافتخار المرسوم على وجوه هؤلاء الناس الذين بالنسبة للبعض لم يقرأوني، جعلتني أشعر بالفرح والغبطة: لقد أكملت واجبي ككاتب وكمواطن. أما ما تبقى، فان هذه الجائزة لم تغير شيئا، لأنني بقيت نفس الشخص. علما، يحدث بعض الأحيان أن أفاجأ أنا نفسي، قائلا: (هاأنت قد حصلت على جائزة نوبل).

■ لقد كنت وما زلت تلجأ دائما في كتاباتك الى الحكاية، الخرافة والمجاز، ونشعر منذ رواية (العمى)** أنك تحاول مطابقة ومضاهاة الحقيقة كثيرا.

■ خوزيه ساراماغو: بعد رواية (الانجيل بموجب المسيح)***، اعتراني الاحساس بأن قرنا من الزمان قد انتهى، دون أن ننتبه أو نشعر حقيقة بانقضائه. ولديّ صورة، أطلق عليها تسمية (التمثال) و(الحجر). التمثال يمثل الواجهة والحجر، يمثل المادة. حتى صدور هذا الرواية، كنت لا أقوم الا بوصف واجهة التمثال. مع رواية (العمى) وما جاء بعدها، مضيت أو دخلت الى داخل التمثال، هناك حيث الحجر لا يعرف انه تمثال. مسيرتي، في الجوهر، هي أن اجرب الذهاب دائما بعيدا جدا في المساءلة التي تعنيني: (ماذا تعني، الحياة ؟).

■ ان رواية (الصَحْو) تُقرأ كما لو أنها تكملة لرواية (العمى). هل هذا مقصود؟

■ خوزيه ساراماغو: أبدا. عندما بدأت في كتابة رواية (الصَحْو) لم أفكر في امكانية ولا بضرورة القيام بقراءة ثانية لرواية (العمى). ومن ثم، أثناء تحرير الرواية، أحسست أن هذا يصعب تجنبه وتحاشيه لأن حالة العمى الخاصة التي عرفتها المدينة التي اخترعتها في الرواية، والآلام التي قاستها، يمكن أن تتعافى وترجع لها الروح بالوعي واليقظة. من خلال هذا المجاز، أشرح بأن النظرة لا تخترق سوى سطح وواجهة الأشياء. لهذا يجب أن نتوقف قليلا، أن نجلس، أن نصمت، نتأمل، نفكر، ليس فقط في حالات العمى، التي هي اليوم قصيرة، وانما في أسبابه.

■ هل تعترف بأن روايتك (الصَحْو) هي الأكثر سياسة وتدميرا من بين كتبك؟

■ خوزيه ساراماغو: في مؤلفاتي الروائية توجد دائما قصدية سياسية، ولكن وهذا صحيح، في هذه الرواية بالذات قصدية سياسية مباشرة لأنها تتحدث عن تصويت انتخابي فارغ، اقتراع أبيض، وانطلاقا من وجهة النظر هذه، تعتبر هذه الرواية الأكثر تدميرا. لهذا استقبلت هذه الرواية بالعديد من المقالات العنيفة والمتعصبة. لقد اتهموني بمحاولة تدمير وتحطيم الديمقراطية. ان تطرقي لبطاقات الاقتراع الفارغة البيضاء أثناء الانتخابات، احدث خوفا بالنفوس. وفي احدى المرات التي قُدم فيها الكتاب، ألقى الرئيس السابق للجمهورية البرتغالية، ماريو سوار، كلمة قال فيها: (انك لا تفهم بأن خمس عشرة بالمئة من بطاقات الاقتراع الفارغة البيضاء ستكون نكبة وكارثة كبيرة على الديمقراطية). ان الكارثة الحقيقية ستقع عندما يحجم خمسون بالمئة عن التّصويت، لأن في اللاتصويت أو التصويت الأبيض، يوجد مسعى واجراء، فعل ورغبة اختيارية من قبل المنتخبين. حتى من أجل هذا، لم أقم بالدعاية والتطبيل للتصويت الأبيض، وانما وبكل بساطة، قلت من خلال المواطنين أنفسهم: (ان ما تقترحونه علينا ليس بكاف، ويجب اختراع شيء آخر. وهكذا وبطيبة خاطر، ننقذ الديمقراطية). انني أعرف، أن هذا يبدو متناقضا، حينما تأتي مثل هذا الأفكار، على لسان حال شيوعي (ان خوزيه ساراماغو، انتمى الى الحزب الشيوعي عام 1959، وشارك في ثورة القرنفل عام 1974). لا زلت حتى الان اسمع من يقول: (خوزيه ساراماغو شيوعي يريد ويحاول دائما أن يقضي على الديمقراطية) ولكن هذا ليس صحيحا بل على العكس.

■ كيف تحكم على ردود الفعل هذه؟

■ خوزيه ساراماغو: اننا نعيش في عصر نستطيع أن نناقش فيه كل شيء، ولكن الغريب والمفاجئ، أن هناك بعض المواضيع لا يمكن مناقشتها، وهذه هي الديمقراطية التي نعيش. ومع ذلك، ان الغريب والعجيب في الأمر، هو أننا لا نستطيع أن نتوقف قليلا ونسأل ونحقق ماذا تعني الديمقراطية، وماذا تخدم، وتخدم من، على وجه التحديد؟ انها مثل مريم العذراء، لا نجرؤ على لمسها أو مناقشتها. لدينا الاحساس بأن الديمقراطية مُعطى مقرر، وثابت لا يقبل النقاش. علما، وهذا ضروري، يجب تنظيم نقاش وجدل عميق على المستوى العالمي حول هذا الموضوع، وهنا، وبكل تأكيد، سنتوصل الى خاتمة مفادها أننا لا نعيش في ديمقراطية، وأن الديمقراطية ليست الا واجهة.

■ لأي سبب؟

■ خوزيه ساراماغو: بكل تأكيد، يمكن اجابتي أو الرد علي، بالآتي: بما أنك مواطن وبفضل التصويت والانتخاب، نستطيع تغيير حكومة أو رئيس، ولكن هذا يتوقف هنا. لا نستطيع أن نفعل شيئا اكثر من هذا، لأن السلطة الحقيقية اليوم، هي السلطة الاقتصادية والمادية، وبالتحديد، في قبضتي مؤسسات ومنظمات، مثل FMI(صندوق النقد الدولي) وOMC (منظمة الاقتصاد العالمي) اللتين هما ليستا بديمقراطيتين. نحن نعيش في البلوتوقراطية (حكومة الأثرياء). ان الجملة القديمة التي تقول، ان (الديمقراطية، هي حكومة الشعب ومن الشعب ومن أجله)، أصبحت (حكومة الأثرياء، من الأثرياء ومن أجلهم).

■ في قصة مجلس لزبون، احدى شخصياتك تقول: (مباركون أولئك الذي يقولون لا، لأن مملكة الأرض يجب أن تكون ملكهم (...) ملكا لأولئك الذين يمتلكون موهبة أن يضعوا الـ(لا) في خدمة الـ (النعم). هذا ما تريد أن تشرحه وتوضحه هنا ؟

■ خوزيه ساراماغو: ان الـ(لا) بالنسبة لي الكلمة الأكثر أهمية. لا سيما، أن كل ثورة من الثورات هي (لا). ولكن، مشكلة الطبيعة البشرية جعلت شيئا فشيئا هذه الـ(لا) تصبح (نعم). تأتي دائما لحظات حيث روح وذهن الثورة والنقاء الذي تحمله، تتغير، تتشوه و بعد عشرين أو ثلاثين عاما، الحقيقة تصبح شيئا آخر. وعلى الرغم من كل شيء، نستمر في الحديث عن ثورة لم تعد موجودة. مثلها مثل الحرية: التي ارتكبت باسمها وبحقها جرائم وجرائم .... .

■ ان الـ(لا) الفرنسية التي جاءت اعتراضا واحتجاجا على مشروع الوحدة الأوروبية قد شفت غليلك وارتيابك بالوحدة الأوروبية ؟

■ خوزيه ساراماغو: أنا لا اعرف أي فرنسا قد صوتت على هذا، ولكنني أحببت كثيرا هذه الرَجفة أو الفزّة، ان صح القول، من وجهة نظر ثقافية، أن فرنسا بالنسبة لي لها أهمية كبيرة وعميقة، حتى وان كنت أفكر انها قد تركت دورها كمنار. واذا نجحت في استرجاعه، سيكون ذلك شيئا عظيما لأوروبا وللعالم أجمع.

■ لقد تنبأت في روايتك (الصَحْو) بالاداتيّة ـ تكييف يؤدي الى قيام حيوان بمهمة معينة عن طريق أداة ـ التي تتبناها بعض الدول الارهابية والمخيفة ...

■ خوزيه ساراماغو: ان هذه الاداتيّة كانت ولا زالت موجودة دائما. وأحداث الحادي عشر من ايلول (سبتمبر) جعلتها مرئية لا اكثر ولا أقل. في حالة الدفاع ضد الارهاب الاسلامي، ان في الطرق والوسائل التي نستخدمها للرد على ذلك، يوجد أيضا ارهاب الدولة. الولايات المتحدة الأمريكية تعرف ذلك، مثلما نحن نعرف. ولكن المشكلة، أن هذا قد بدا وكأنه شيء طبيعي. وليس فيه ما يفاجئ: في كل مرة، حكومة من الحكومات تستعمل معايير خاصة باسم الارهاب، تجيب أو ترد بشكل آخر من أشكال الارهاب.

■ في هذه الرواية، نرى جيدا أنك مخلص لمبادئك وشعاراتك: (بقدر ما يتقدم بنا السن، بقدر ما نحن أحرار، وبقدر ما نحن أحرار، بقدر ما نحن راديكال) ...

■ خوزيه ساراماغو: ان التقدم في السن ليس بشرط من شروط الحرية، بل على العكس. خاصة في حالة مثل حالتي، بعد تفكير، توصلت الى خاتمة منحتني حقا، حرية أكثر. ان ما قادني لأن أكون أكثر راديكالية مثلما تشرحه وتفضحه هذه الرواية من خلال عبارة توجيهية ضمنتها فيها: (لننبح، يقول الكلب). ان هذا الكلب، هو أنتم، وأنا، ونحن جميعا. وعندما بدأنا نتكلم، عبرنا عن العديد من المواضيع من غير أن نُسمع حقيقة. لهذا السبب بالذات، ومن الآن فصاعدا علينا أن نغالي في المطالبة. نعم، انني اعتقد أن زمن النباح قد أتى.

ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ

ترجمة: محمد سيف

* ـ بعد الاستقبال الصاخب لكتاب (الانجيل بموجب المسيح)، ان خوزيه ساراماغو اختار أن يعيش منذ عام 1992 في جزيرة لنزوروت في اسبانيا.

** ـ هذا الكتاب نشر عام 1997 في دار نشر سوي الفرنسية، أعد الى السينما من قبل المخرج البرازيلي فرناندو ميغريل.

*** ـ نشر في دار نشر سوي عام 1998.

المنـــادَى

مراد السوداني *

[تلويحة إلى صديقي جداً.. الشاعر عبد الرحيم الشيخ: حيث لا تشبه مَنَا!]

بعد أن غادر الميتونَ الحديقة
وطارت عن الشجر الأغنيات؛
نوديتَ يا صاحبي في الملمّة والهجر..
هنا أرضٌ من لا سماء لهم..
هنا وطنٌ نبتغيه فينأى
ونوغل فيه، فينأى
هنا وطنٌ داثرٌ.. دماءٌ ترفُّ وتزقو..
ذهابُ الحكاية طافحةً حَسرةً
غريدٌ ذبيحٌ.. غريب به ويلُ ذكرى وطيشٌ كثير
كم الساعة الآن؟
غادرتني السكينةُ...
وامرأةٌ علّقتْ شالها القرمزيّ على باب قلبي
وغابت...
غادرتني الخيلُ والليلُ وأفراحُ البلاد..
أعولتْ فيَّ القصائدُ
رنَّ حزنٌ في جرار النار
درتُ ما بين النساءَ لأن جاريةً سبتني
دونما قصد ..
أو هكذا قد شُبِّهت لي..
غادرتني رغبةٌ في اللهو أو للصيَّد.. أو..
أجراءُ نحيا في بلادٍ تنتقي الشهداء والشعراء
صفاً واحداً
أجراءُ نحن، قلوبنا رقّت كما الخزفِ القديم
على مطارقهم
نَنْسَلُّ من ثوب الغواية جمهرات رؤىً..
متناوحيْن على ضفافَ الحزنِ
أغْربةً حيارَى..
أيّ البلاد تحبُّ؟ قلتُ:كلامها يعلُو على قمم
الجبال
أيّ النساء تحبُّ؟ قلتُ: بلادنا يرفو خرائبَها
الحنين من لم يُحبْ.. فلنْ يُحَبْ
وتنفرط أيامه بددا
من لم يعانق حلْمَهُ يشقى وتنعفه الرِّياح
من لم يدارِ الدمع يطحنه النَّدَى
بيننا يا صاحبي طرقٌ من المعنى، ومعنى دونما
طرق
وأسئلة وبحث عن مصائر جيلنا
منفى هو الوطن الذي نحياً
ومنفى أن نقول:
ضَرِيتْ مواجعنا وأنْهكنا الوصول
منفى..
لم تسعف الأنثى هواجسنا لنشفى
لم نشترِ الأزهار.. ربينا القصائد داجناتٍ
في براريِ الروح
بيننا، يا صاح، شوك بلادنا
همس الفتى لفتاته:
عند الغروب، قبيل رفَّة زاجلٍ في الوعرِ
قرب سريِّس التلال العَاليات،
ولجأة الوحش الغريب لظلّه
وعلى رَنين الماء أخضرَ تستطيعين الغناءَ
وترفعين القلبَ أعلى من قباب الماء في الوادي
وتستطيعين النشيدَ بكل ما أوتيتِ من ولَهٍ
وتستطيعين النَّشيجْ.
بيننا، يا صاحِ، رَشْقُ الانتباهِ ولا يليقُ به
سوانا
جرسُ المسرّة لا يفارقنا
وندهشُ رُغبةً أو رهبةً
ونلوذُ بالكلمات حتى يستوي فينا المُنادَى..
والمُنادي طائر الرؤيا البليغ
يا ويلنَا منا استباحتنا البلادُ
رَهقاً أصابَتنا وغرّبنا المدادُ
حدِنا عن الجلّى فأربكنا الحيادُ

* شاعر من فلسطين

شعرية الاحتجاج في المجموعة القصصية «حذاء بثلاث أرجل» لعبد الرحيم مؤدن

بوشعيب الساوري

■ ظل عبد الرحيم مؤدن وفيا للقصة القصيرة منذ السبعينيات من القرن الماضي، ولم يكن من الذين اتخذوها مرحلة تدريبية للمرور إلى الرواية، ولا من الذين زاوجوا بين الرواية والقصة. لكننا نلاحظ تباعدا زمنيا بين مجموعته الأولى اللعنات الزرقاء(1976)، والمجاميع الثلاث الأخرى (تلك قصة أخرى(1990)، وأزهار الصمت(2002)، وحذاء بثلاث أرجل(2006)),1 ونفسر ذلك بأخذ الكاتب مسافة زمنية للتأمل والمراجعة وإعادة النظر في تجربته وأسسها.

الملاحظة الأساسية التي يخرج بها قارئ المجموعة هي شذوذها عن واقع الكتابة القصصية السائدة الآن(إنتاج كمي غزير، وكثرة الأسماء، لكن الغائب هو القصة.) لتقدم لنا كتابة قصصية مسائلة ومجددة للقصة دون التفريط في ثوابتها الشكلية والمضمونية. تأكيدا منها على ضرورة التجديد لكن ذلك التجديد الذي يجعل القصة قصة قصيرة، أي ما يسمح به جنس القصة القصيرة.

تقدم مجموعة حذاء بثلاث أرجل إمكانات متعددة للتلقي والقراءة كالصوغ الحكائي وآليات السرد وبناء الجملة القصصية، والبناء المفارق والساخر والتقاط اليومي، والميتانص وغيرها. كل ذلك يؤكد على الإمكانات القرائية الكثيرة التي تتيحها المجموعة وهذا قلما يتوفر في مجاميعنا القصصية.

وقراءتنا هذه واحدة من تلك الإمكانات التي تتيحها المجموعة. وقد لفت انتباهنا الحضور التيمي القوي للاحتجاج الذي أضحى بنية تيمية مهيمنة على جل قصص المجموعة، وقد توسل بمجموعة من الآليات؛ أهمها الفانطاستيك الذي كان رهانا من رهانات الكتابة القصصية في المجموعة وسمة مميزة لأغلب نصوصها. إضافة إلى الاشتغال المتميز على اللغة بكل إمكاناتها ومكوناتها إذ نسجل حضورا قويا للغة في كل تجلياتها والتي تتدرج من اليومي إلى الشعري.

1– الاحتجاج

يعد عبد الرحيم مؤدن من القصاصين القلائل الذين يصدرون مجاميع قصصية تنتظم حول تيمة واحدة ناظمة؛ تجلى ذلك، خصوصا، في هيمنة تيمة الصمت على مجموعته أزهار الصمت2 والذي كان خيارا احتجاجيا. ونسجل حضور هذه الخاصية كذلك في مجموعته الجديدة حذاء بثلاث أرجل التي تأتلف قصصها حول بنية مهيمنة ناظمة لها وهي الاحتجاج الذي يتغذى على أسلوب الاستفهام في كثير من الأحيان، وعلى الرفض حينا وعلى التظاهر حينا آخر. وبذلك ينتقل بنا عبد الرحيم مؤدن في مجموعته الجديدة من الاحتجاج الصامت إلى الاحتجاج الناطق والفعلي.

يتمظهر الاحتجاج في القصة الأولى التي يفتتح بها المجموعة"قصة قصيرة" عبر الاستفهام على سؤال لازمة وهو:"لماذا أنا قصيرة؟"(8) تحتج القصة القصيرة، في إطار الوظيفة الميتانصية التي تطلع بها قصص المجموعة، على تسميتها بالقصيرة.

والرفض في القصة الثانية"كاتب عمومي" إذ تحتج الآلة الكاتبة وتمتنع عن الكتابة:"أرفض أن أزيد حرفا.. هذا كثير.. كثير جدا.."(17)

وعبر الدموع في قصة واحد اثنان:"للطفل دمعتان."(56)

وفي أحيان أخرى يرتقي إلى مستوى الفعل، كما هي الحال في قصة الأوطوروت يتجلى الاحتجاج عبر التظاهر:"واختلط الحابل بالنابل ووجدتني أردد مع المرددين [...]طوط.. طوط.. وفلوس اللبن ما يبقاش يديم زعطوط."(58).

2– الفانطاستيك

تتوسل مجموعة حذاء بثلاث أرجل بمظاهر الفانطاستيك، من خلال توظيف عبارات ومفردات ومقاطع تنشد إلى الغرابة انطلاقا من القصة الأولى. ويتعالق هذا المنحى الفانطاستيكي مع الواقع والمتخيل للتعبير عن تلك المفارقات والتوترات القائمة أساسا في هذا الواقع، إضافة الى تلوين الأحداث بالغموض، الذي يضفي التباسا على النص، بطريقة مختزلة ومكثفة للتفاصيل. مما فتح دلالات القصص على التعدد الرؤيوي والدلالي وعلى عدة احتمالات تأويلية.

فهناك منحى فانطاستيكي في تناول القضايا اليومية، وهو نوع من الاحتجاج بل آلية من آلياته(الاحتجاج). ويتأسس الفانطاستيكي، انطلاقا من مفارقات اليومي، فيستجلي القاص إمكانات خارج حدود المعقول في المجموعة. بجعل الشخصيات القصصية إما أشياء الحذاء، (في قصة"حذاء بثلاث أرجل") أو حيوانات وحشرات (في قصة"حمير جدة" وقصة"فراشات سوداء وبيضاء") والآلة الكاتبة (في قصة"كاتب عمومي"). والقصة القصيرة، التي تطرح أسئلة حول ذاتها(في قصة"قصة قصيرة):"لماذا أنا قصيرة؟". ليجعل القصة تضطلع بوظيفة ميتا نصية. ومن أهم تجليات الفانطاستيكي في المجموعة:

–التداخل بين الواقعي والمتخيل و الممكن والمحتمل، مثلا في قصة"حمير جدة" بين الحمير والجدة إذ يصل التداخل حد التماهي. ينتهي بإضفاء طابع غرائبي على أفعال الحمير:"ولكن لماذا كان حمير جدتي يصل، طالَ الزمن أم قصر، ولا تصل الطائرات والصواريخ؟! ذلك هو السؤال!"(ص,33,) مما يجعل السرد محاولة لفهم بأي حمير يتعلق الأمر هل هو الحشرة المعروفة أم الجدة أم كائن وهمي؟ وتداخل الرجل والحذاء في قصة "حذاء بثلاث أرجل".

– الغرائبية: يضفي السرد على الأحداث العادية واليومية طابعا غرائبيا تهويليا. يقول مثلا في قصة"رغبات المستمعين":"ولم يكد المقرئ ينهي آخر آية من سورة البقرة حتى اهتز الدرع النحاسي بصرصعة رضيع يتلوى من الألم، لم تلبث أن تحولت إلى ضحكة رائقة تخللتها رضعات سريعة من حلمة منفلتة بين لعاب الشفتين وحركة يدين سايرت إيقاع أغنية راقصة لمنظمة دولية ترعى الطفولة والأطفال!"(ص,39,) وكذلك بإضفاء مواصفات غريبة على الحذاء في قصة"حذاء بثلاث أرجل"يقول:"منذ أربعين عاما والحذاء يلازمني كالظل [...]والحذاء يلمع وذرات الغبار لم تأخذ منه حقا ولا باطلا.. حذاء غريب يجمع بين الغبار واللمعان."(ص,36,)

3– اللغة

لا يختلف تعامل عبد الرحيم مؤدن مع اللغة عن عمله السابق أزهار الصمت، فيستمر على نفس المنوال. إذ تتوسل اللغة القصصية في مجموعة حذاء بثلاثة أرجل، بمجموعة من المقومات كالانفتاح على اللغة المحلية المغربية بكل حمولاتها الدلالية، واستغلال وتفجير المخزون الثقافي الشعبي من خلال الأمثال الشعبية المغربية.